

المدونة وأثرها في مختصر خليل - عرض وتحليل -

The influence of the book "Al-Mudawwana" on the book "Mukhtasar Khalil" among the Maliks

-Presentation and analysis-

أ. د نور الدين عباسي*

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

n.abassi@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2025/06/25

تاريخ القبول: 2025/06/24

تاريخ الارسال: 2025/06/19

الملخص:

تتلخص هذه الدراسة في البحث عن مدى تأثير مختصر خليل بالمدونة؟ والعارفون بمذهب مالك يدركون حقيقة أثر المدونة في مختصر خليل؛ إذ إنَّ الشيخ خليل أقام مختصره في المقام الأول عليها دون غيرها؛ حتى إنه أحال بالترميز عليها بـ: "فيها"؛ كيف وقد علم تشبيه سحنون لها بأمر القرآن؛ لما قال: "إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن، تجزئ في الصلاة عن غيرها، ولا يجزئ غيرها عنها."

والشيخ خليل وإن كان هو خاتمة المتأخرين في المذهب؛ إلا أنه لم يفوت فرصة الإفادة من المدونة؛ التي تمَّ التداول عليها أربعة من المجتهدين: مالك الإمام المجتهد المطلق المستقل، وابن القاسم تلميذه المنتسب لمذهبه حقيقة وحكماً، وأسد وسحنون؛ صاحباً فكرة التصنيف للمدونة؛ فمالك رواها لعبد الرحمن، وأسد بن الفرات أول من كتبها بعد سماعه لها عن ابن القاسم؛ والطبعة النهائية المزينة والمنقحة هي من عمل سحنون؛ وفاز باللذة الجسور.

* المؤلف المرسل

والشيخ خليل مجتهد مقيد بالمذهب في الفتيا العامة التي تستعين بالتحريج والترجيح؛ إذ إنه أبان في فاتحة خطبة المختصر بالعبار، فقال: " (وبعد) فقد سألتني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق، وسلك بنا وبهم أنفع طريق، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة، مُشيراً بـ "فيها" للمدونة." **الكلمات المفتاحية:** مالك، المدونة، ابن القاسم، سحنون، مختصر خليل.

Abstract:

The book "Al-Mudawwana," compiled by Sahnun and compiled from the answers of Imam Abd al-Rahman ibn al-Qasim, is considered the primary and fundamental reference in the Maliki school. Maliki scholars paid particular attention to this book, teaching it, summarizing it, and explaining it. The book "Al-Mukhtasar," compiled by Imam Khalil ibn Ishaq, is the most famous among later Maliki scholars.

This article examines the extent of the influence of the book "Al-Mudawwana" on the book "Mukhtasar Khalil." The author of "Mukhtasar Khalil" states in the introduction to his book that he relied on the book "Al-Mudawwana" and that he refers to it with specific terminology in his book. This article attempts to examine the extent and nature of this influence, as well as Khalil's approach to the meanings, terminology, and content of the book.

Keyword: Imam Malik, Al-Mudawwana, IbnAl-Qasim, Sahnun, Mukhtasar Khalil.

المقدمة

الحمد لله حق حمده، والصلاة على نبينا محمد رسوله وعبدته، وعلى آله وصحبه حبه ووفده؛ فإنَّ الله تعالى إذا قَدَّرَ للشيء حدوثه هياً له أسبابه؛ وعادة الله في خلقه جارية في أنَّ المسبب يتبع سببه وجوداً وعدماً، رحمة منه وتفضلاً على عبادته؛ وإلا فهو القائل عن نفسه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (الأنعام: 61).

وكانت المدونة عند المالكية ولا تزال بحمد الله الملك الديان هي عمدتهم في أخذ الأحكام؛ نظراً لشهرتها وانتشارها، ولعلو كعبها على ما سواها مما سبق من التدوين الفقهي قبل تأليفها؛ إذ الفقهاء في المدينة من التابعين ليسوا بالقلة ولا يفقد الإجابة حتى يعجزوا عن مجاراتها؛ وشيوخ مالك الذين أخذ عنهم هم أهل المدينة؛ وإنَّ أقربهم إليه تأثراً به ربيعة الرأي؛ إذ إنه الأول من الشيوخ الذي رضيته والدته له مؤدباً ومعلماً؛ فقد عممته، وقالت له: اذهب إلى ربيعة فخذ من أدبه قبل علمه، ومن هنا راح هذا الغلام الهمام يكشف عن أسرار التلقي الصحيح الموصل إلى حقائق الأشياء ومدرجات الأمور؛ وحقائق الأشياء تشير إلى الوجود الواقعي للأشياء، سواء كانت مادية أو مجردة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، ومدرجات الأمور تشير إلى فهمنا وإدراكنا لهذه الحقائق، وهذا هو الذي نفذ إليه مالك من بدايات الطلب والتحصيل؛ فنال بركة ما طلب، وحصل ما لم يحصله المحصلون من خير أفضل القرون زماناً، وأفضل البقاع في الدنيا المدينة المنورة والحرم النبوي؛ إذ هو القائل: " المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " ¹ فاجتمع عنده ما لم يجتمع لغيره من تاريخ تالد مشرق، وجغرافيا شاهدة فاضلة؛ فصار مالك من بعد أن انتهت إليه رئاسة التدريس في الحرم النبوي مع تلاميذه كحال من صدق عليهم مما في الخبر: (هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) ²، لا سيما عبد الرحمن بن القاسم، وأسد بن الفرات؛ ومن بعدهما سحنون؛ ومن بعدهم جميعاً الشيخ خليل.

وأطمع أن أنال ما نالوه من الفضل ونعمة الحسنى وزيادة، وإن كانت بضاعتي مجزأة، وحسبي أن أخدم مذهب عالم المدينة الجليل الذي لا يسغني عنه من يفقه الدليل، ويرغب في اتباع سنة المرسلين.

أسباب اختيار الموضوع:

1. الرغبة في خدمة البحث العلمي، وذلك من خلال المشاركة في أفراد بحث عن أثر المدونة في مختصر خليل؛ للتدليل على التراتبية الحاصلة في مصادر الفقه المالكي.
2. الاستفادة الحقيقية من دراسة المذهب المالكي؛ بالرجوع إلى مصادره الأصلية الأصلية وكتبه المعتمدة دون سواها.

هدف البحث:

إبراز الأثر الذي تركته المدونة في أهم مختصر من المختصرات الفقهية واسع الانتشار وذائع الصيت؛ لا سيما في دول شمال إفريقيا ودول الساحل الإفريقي.

إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية هذه الدراسة في أنها تميّط اللثام عن جملة من التساؤلات فيها، وهي:
ما القيمة العلمية للمدونة التي تفضل بها عن غيرها من مصادر الفقه المالكي؟
ما أثرها في تأليف ومصادر الفقه المالكي؟
ما مدى تأثير المدونة في مختصر خليل؟ وهل مختصره هو اختصار للمدونة؟

الدراسات السابقة والإضافة المعرفية:

لا يوجد موضوع يحمل عنوان بحثي هذا (المدونة وأثرها في مختصر خليل - عرض وتحليل -)، ولكنني وقفت على دراسة بعد الشروع في بحثي؛ وعنوان الدراسة تشي بالتقارب بين الباحثين والدراستين إذ نشرت منشورات مركز الإمام مالك الإلكتروني كتاب للأستاذ هشام نوزري، بعنوان: أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية، الطبعة الأولى: 2020م.

وأول الخلاف بين الدراستين من حيث التصور المعرفي لبحث قيمة المدونة - فضلاً عن أثرها الجلي في مصادر الفقه المالكي عموماً ومختصر خليل خصوصاً - اعتبار الأستاذ هشام المدونة الأصل الثاني بعد الموطأ؛ إذ إنه يقول في مقدمة الكتاب: "...وهي الأصل الثاني بعد الموطأ في الفقه المالكي..."³ وهذا خلط وتغليط لحقائق الأشياء؛ إذ الموطأ مؤلف في

السُّنَّة والحديث، وجل إجابات مالك في المدونة تقضي بتقديم ما فيها على ما في الموطأ؛ لما يملكه مالك في إجاباته من السنة المتواترة تمثلت في عمل أهل المدينة الذي طريقه النقل والرواية، وجُلُّ ما في الموطأ مرويات وأخبار آحاد ليس إلا.

منهج البحث: اعتمدت في هذه الدراسة المنهج التحليلي والاستقرائي. التزمت ضوابط البحث المنهجي: عزواً وتخریجاً، ضبطاً وتحريراً.

خطة البحث:

وقد شملت خطة البحث مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة تضمنت نائج البحث وتوصياته؛ بحيث يتناول المبحث الأول: الكلام عن التدوين الفقهي في المذهب المالكي قبل تأليف المدونة، وأما المبحث الثاني: فيتناول الحديث عن المدونة ومكانتها في المذهب المالكي، وفي المبحث الثالث: تم التطرق لمختصر خليل ومكانته في المذهب المالكي، وأخيراً في المبحث الرابع: بيّنت فيه تأثير المدونة في مختصر خليل. وهي وفق الشكل التالي: مقدمة.

المبحث الأول: التدوين الفقهي في المذهب المالكي قبل تأليف المدونة.

المبحث الثاني: المدونة ومكانتها في المذهب المالكي.

المبحث الثالث: مختصر خليل ومكانته في المذهب المالكي.

المبحث الرابع: تأثير المدونة في مختصر خليل.

الخاتمة.

المبحث الأول: التدوين الفقهي في المذهب المالكي قبل تأليف المدونة.

لا يمكن الجزم بأن ما قبل تأليف المدونة لم تشهد ساحة المدينة المنورة نشاطا علميا ولا تدوينا يخص المذهب المالكي؛ بل كانت للإمام مالك⁴ نفسه نشاطات علمية متنوعة ضمت مجالسه الحافلة بالعطاء والثراء العلميين؛ إذ له كما هو مشهور تدريسه في مسجد رسوله الله ﷺ للحديث النبوي الشريف، وحلقة علم يقرر فيها المسائل التي آثر أن تكون للخاصة من تلاميذه تحت سقف بيته.

وسماعات مالك هي تدوينات لتلاميذه خصّت أقواله وأجوبته عن المسائل؛ ولا شك أن لجل تلاميذه سماعات؛ فاشتهر كل منهم بما حصّل عليه من قدر التدوين وكفاية الاستيعاب لما أجاب، وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

والأسمعة عند مالك لا تخلو من تأديب للطلاب إن احتاج تأديبهم؛ فقد كان رحمه الله يَحْمِلُهُمْ على ما تَحْمَلُ من شيوخه من الحرص في أثناء الدرس والسماع على مراعاة الأدب، وقد قالوا: الأدب بين أهله نسب، والشرف بالأدب لا بالنسب، والغريب من لا أدب له، وفي هذا الصدد ذكر ابن أبي زيد القيرواني⁵ مما جاء في أسمعة مالك مع طلابه: " أنَّ يحيى بن يحيى كان جالسا عند مالك؛ فسأل عن مسألة فأسرع يحيى بالجواب؛ فقال مالك: أَمِنَ المروءة ومأ يتزين به الحليم -: أن إذا سُئِلَ عن شيء أسرع الجواب فيه؟ لقد سألت ربيعة عن مسألة فأبطأ عني بالجواب؛ ثم أجابني؛ فتعجّبت!، فقال لي: ممّا تعجبت يا ابن أبي عامر؟ فقلت: من حُسن جوابك فقال: لو تعجّبت من إبطائي عنك بالجواب؛ ما عدّدتك مالكا⁶."

المبحث الثاني: المدونة ومكانتها في المذهب المالكي.

امتاز الإمام مالك بتصنيف كتاب في فقه السنة والحديث في وقت مبكر قبل أن يُصنَّفَ أحدٌ من النَّاسِ في سنة المصطفى وحديثه المجتبى؛ وإنَّ سبب تصنيفه هذا معلوم ومعروف، إذ إنه كان بتكليف من خليفة المسلمين العباسي أبي جعفر المنصور إذ قال له: "يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتنى الخلافة؛ فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشذائد ابن عمر - وشواذ ابن مسعود - ووطئه للناس توطئة قال مالك: فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ⁷، وقد ظهر كتاب الموطأ لمالك واشتهر في النَّاسِ وزاحم في روايته الجميع حتى ممن لم يكن من أصحاب الإمام ولا من مذهب مالك، فللحنفية رواية للموطأ يعترضون بها بل ويفأخرون بها المالكية وهي رواية الإمام محمد بن الحسن الشيباني، ولنظيره الإمام محمد بن إدريس الشافعي رواية أخذها عن مالك أثناء الطلب، والإمام أبي يوسف القاضي بواسطة رجل عنه، وعبد الله بن وهب، وابن القاسم، وأسد ابن الفرات، وغيرهم، ومن المحدثين البارعين: كيحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن المهدي، عبد الرزاق، وأبي مصعب الزهري، ويحيى بن بكير، وعبد الله القعني، ومصعب ابن عبد الله الزبيري، وغيرهم، ومن الملوك والأمراء؛ فهارون الرشيد الخليفة العباسي، وبنوه: الأمين والمأمون والمؤتمن، وكذا المهدي والهادي.

وإذا كان هذا هو الشأن الذي اعترى تصنيف الموطأ، فهل يمكن عده من جملة فقهه، فضلا عن اعتباره أصلا من أصوله المعتمدة في التخريج والاستنباط؟

هذا وإن لأتباع الإمام دواوين، حفظت لنا مذهبه واختصت في دراسة فروع المسائل ومصادر الفقه، وهي متفاوتة في درجة الاعتبار، وإن أقواها وأنقاها على الإطلاق المدونة لسحنون⁸ بن سعيد، وتسمى الأم، والمختلطة، ويطلقون عليها اسم الكتاب، والترادف هاهنا يدل على القيمة والأهمية كما لا يخفى⁹.

إنَّ الحديث عن مدوَّنة سحنون والظروف التي أحاطت بتأليفها يستدعي منا أن نبيِّن المدرسة الفقهية التي ينتسب إليها هذا المصنّف العظيم الذي أتيحت له فرصة التّصنيف لهذا المصدر الأساسي والهام في مذهب مالك الهمام، والمذهب المالكيّ مذهب عريق وهو وإن تأسّس في المدينة المنوَّرة؛ إذ إن صاحبه مدنيّ الولادة والنشأة والوفاة ولم يعرف عنه أنه خرج منها إلى غيرها من الأمصار، ومن الطبيعي أن ينتشر هذا المذهب في غير ما من مصر من الأمصار والدارسون في حلقة الإمام والآخذون عنه جلّهم من غير الحجاز؛ إذ منهم من كان من العراق وأكثرهم من مصر وبلاد شمال إفريقيا والأندلس، ولعل ما يميّز هذا المذهب عن غيره من المذاهب الأخرى أن تأسّست به مدارس خارج بلاد النشأة لمذهب الإمام، فدونك من المدارس شرق المدينة وغربها، وإن أول مدرسة مالكيّة تأسّست بعد مدرسة المدينة هي المدرسة المصريّة، ومن أقطابها والمؤسّسين لها ابن القاسم¹⁰ وأشهب وعبد الله ابن عبد الحكم.

وانتشر المذهب المالكيّ في العراق عن طريق أصحاب مالك كعبد الرحمن بن مهدي وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيره كالأبحري والباقلاني وابن الجلاب وابن القصار والقاضي عبد الوهاب البغدادي.

وكان لبلاد الغرب الإسلامي الحظ من مذهب مالك؛ إذ إن أغلب تلاميذه والوافدين إليه هم كما عرفنا من شمال إفريقيا والأندلس، وكان أبرز هؤلاء علي بن زياد والبهلول بن راشد وعبد الرحيم بن أشرس وعبد الله بن غانم.

تلك هي المدارس الفقهية التي نشأت بعد مدرسة المدينة المنوَّرة، ولم يكتب لها البقاء والاستمرار كبقاء واستمرار المدرسة المغربية التي حوت أقطار دول شمال إفريقيا والأندلس، وليس غريبا أن تكون المدوَّنة لعلم من أعلام هذه المدرسة؛ فالإمام سحنون هو الذي أخذ عن شيخه عبد الرحمن بن القاسم، فقد عرفت هذه المدرسة في عهده ازدهارا كبيرا بسبب تأليفه للمدوَّنة، ولعلّ السبب في ذلك كلّها أنّها مدرسة أفادت من المدارس المالكيّة الثلاث (المدنيّة، المصريّة، العراقيّة)، فهي نتاج منها؛ فنشأتها طيبة ومسارها صحيح، فقدد جمعت ما صحّ فيما كان موجودا قبلها من المدارس، واختارت من أصولها وقواعدها ما هو أقوى وأنقى¹¹

المبحث الثالث: مختصر خليل ومكانته في المذهب المالكي.

خليل¹² بن إسحاق الجندي، أبو المودّة، يُلقَّبُ بالشيخ، ولَقَّبُ الشيخ في اصطلاح المذهب يطلق على ابن أبي زيد القيرواني في المتقدمين، وهو خاتمهم، وعلى خليل بن إسحاق في المتأخرين، ومختصره كان مسبقاً بمختصر ابن الحاجب، وهو أول مختصر دخل إلى بلاد الشمال الإفريقي، وقد قام بشرحه خليل وهو من أمتع الشروح وأفضلها، وأسماء التوضيح في شرح جامع الأمهات، لم يأت أحد من شُرَّاحه بالذي جاء به خليل من تعليل وتقعيد وتدلّيل، فنال قبول المسلمين؛ فكثرت عنه النقول من أرباب العقول، ولعل إخلاص الشيخ خليل في خدمة شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي جامع الأمهات هو السبب فيما فتح الله عليه في مختصره الذي نال شهرة فاقت شهرة مختصر ابن الحاجب؛ إذ حلَّ محله¹³، واستخرج من التّوضيح مختصره، وجاء كمرحلة من مراحل الترجيح والتشهير، والعود إلى البدء الذي كانت فيه المدونة حاكمة وسائدة، وطُرِحَ ما عداها من الكتب الزائدة، دفعا لكل تشويش ولبس، وأخذاً بالمعتمد من مذهب مالك بن أنس.

أفنى في تأليفه زهرة عمره، وهو الذي لم يعمر، إذ استغرق وقت تبييض ورقاته وتحرير مسائله أزيد من عشرين سنة، وهي مدة يُحَصَّلُ فيها تصنيف المطولات لا المختصرات؛ لأنه صاغ تأليفه على طريقة بديعة تقوم على النبوغ العقلي، وأتى فيه بالعجب من حيث الإيجاز والاختصار، وأودع فيه من المصطلح والتميز والإشارة والتلويح بأبكار الأفكار، وجاءت فيه الاختصارات؛ لتقليل الكلمات والعبارات، فأضحى بمستوى فاق به الأقران، وتجاوز به العصر والأوان؛ فكأني بعصارة فقهه كالقرصٍ مدمجٍ والمضغوط.

ولو لم يكن في مختصره بالمدونة حفياً، لما التفت النُّظار والحدّاق إليه بكرة وعشياً، والمتعلمون ولدانا وشيياً يحفظون متنه كما يحفظون القرآن الكريم، وهو عن ذلك كله زعيم، مُجْمَعاً على ديانته وفضله، شيخاً مُتَمَعّاً من أهل التحقيق، اجتمعت لديه اكتساب علوم الشريعة، والفُيُوضات الرّبّانية من علم الحقيقة، وهو بذلك خليق؛ إذ إنه العالم المحقق والعارف المتحقق؛ إذ ابتعد فيه عن كل ما يزري ويشين، وما يقدرح في المرء الحليم الرزين،

وَلَسْتُ هَاهُنَا فِي الثَّأْنِ عَلَيْهِ مَبَالِغًا، وَلَوْ أُنِّي أَطْنَبْتُ فِي ذِكْرِ خِلَالِهِ وَسَجَايَاهُ، لَمَا وَسَعَنِي الْوَقْتُ لِعِدَّهَا وَاسْتَقْصَائِهَا، وَلَمَا وَفَيْتَ حَقَّهُ وَلَا قَارَيْتَ، وَحَسْبِي مَنْ هُمْ أَعْرَفَ مِنِّي بِهِ مِنْ مَدَحِهِمْ لَهُ وَلِمَخْتَصَرِهِ بِالْعِبَارَاتِ الْقَوِيَّةِ الصَّادِقَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِفَةِ الْمَخْتَصَرِ؛ إِذْ حُقَّ لَهُمْ أَنْ يَثْنَوْا عَلَيْهِ؛ وَهُمْ شُرَّاحُهُ؛ فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ غَازِي فِيهِ فِي مُقَدِّمَةِ شَرْحِهِ: "... إِنْ مَخْتَصَرَ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ خَلِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ مِنْ أَفْضَلِ نَفَائِسِ الْأَعْلَاقِ، وَأَحَقُّ مَا رَمَقَ بِالْأَحْدَاقِ، وَصُرِّقَتْ لَهُ هُمُ الْحَدَّاقُ؛ إِذْ هُوَ عَظِيمُ الْجَدْوَى، بَلِغُ الْفَحْوَى، مُبَيِّنٌ لِمَا بِهِ الْفَتْوَى، أَوْ مَا هُوَ الْمَرْجُوحُ وَالْأَقْوَى، قَدْ جَمَعَ الْإِخْتِصَارَ فِي شِدَّةِ الضَّبْطِ وَالتَّهْذِيبِ، وَأَظْهَرَ الْإِقْتِدَارَ فِي حَسَنِ الْمَسَاقِ وَالتَّرْتِيبِ، فَمَا نَسَجَ أَحَدٌ عَلَى مَنَوَالِهِ، وَلَا سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ، وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّيْخِ الْأَدِيبِ الْبَارِعِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمَامَةَ السُّلُويِّ؛ إِذْ يَقُولُ فِيهِ:

خَلَلْتُ مِنْ قَلْبِي مَسَالِكَ نَفْسِهِ وَالرُّوحُ قَدْ أَحْكَمَتْهُ تَخْلِيلًا
أَخْلِيلُ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُكَ خَلَةً مَا مِثْلُهَا يَهْبُ الْخَلِيلُ خَلِيلًا
فَخَلِيلُ نَفْسِي مِنْ يُودِ خَلِيلِهَا وَخَلَاهُ ذَمٌّ إِنْ أَحَبَّ خَلِيلًا¹⁴

وَقَالَ الْخَطَّابُ: " مَخْتَصَرُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ وَلِيِّ اللَّهِ خَلِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِ الْمَسَالِكَ؛ إِذْ هُوَ كِتَابٌ صَغِيرٌ حَجْمُهُ، وَكَثُرَ عِلْمُهُ، وَجَمَعَ فَأَوْعَى، وَفَاقَ أَضْرَابَهُ جَنْسًا وَنَوْعًا، وَاخْتَصَّ بِتَبْيِينِ مَا بِهِ الْفَتْوَى، وَمَا هُوَ الْأَرْجَحُ وَالْأَقْوَى، لَمْ تَسْمَحْ قَرِيحَةٌ بِمِثْلِهِ، وَلَمْ يَنْسَجْ عَلَى مَنَوَالِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَفَرْطُهُ فِي الْإِيْجَازِ كَادَ يَعِدُّ مِنْ جُمْلَةِ الْأَلْغَازِ"¹⁵.

فَوُتِرَ فَقَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كَمَا وَرِثَ مَالِكٌ فَقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْحِينِ.

المبحث الرابع: تأثير المدونة في مختصر خليل.

لَقَدْ اسْتَبَانَ الْمُنَسِّمُ وَاسْتَقَامَ فِي مَدَى تَأْثِيرِ الْمَدُونَةِ فِي الْمَخْتَصَرِ الْخَلِيلِيِّ؛ إِذْ أَمَرَ ذَلِكَ لَيْسَ بِالْخَفِيِّ وَلَا بِالْمُشْكَلِ، وَالتَّدْلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ يَكَادُ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ.

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ¹⁶

ولكن مع ذلك لا بد من البيان والتذكير بأنه إذا احتاج الناس في مرحلة متأخرة من عصور التقليد إلى مثل مختصر خليل؛ فإنه لا بد في فهمه فهما صحيحا من الاستعانة بالمدونة؛ إذ إنها هي ترياقه وعلاجه ونوره؛ فافتقاره إليها كافتقار الفرع للأصل عند طلب التخريج؛ إذ إنها كما قال عنها سحنون: "إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن، تجزئ في الصلاة عن غيرها، ولا يجزئ غيرها عنها."

وعليه فلو لم يكن المختصر مسبوقا بالمدونة لما كان له من فضل، والفضل للسابق وإن أحسن اللاحق، ولا نعي من إيراد هذا المثل العربي التقليل من شأن اللاحق، أو إهمال إنجازها؛ وكل ذلك من عطاء العليم المنان، يعطي بما شاء لمن يشاء في الوقت الذي يشاء؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْهُمْ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: 20)

ولو كنت أملك من دليل مادي على تأثير المدونة في المختصر الخليلي بعدد مرات النقل عن المدونة، إذ لما كان لتأثيرها عليه بشيء معتبر، والمدونة في قائمة ثبت مصادره؛ وأشار بـ "فيها" عليها؛ قال في فاتحة خطبة المختصر بما نصه:

" (وبعد) فقد سألتني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق، وسلك بنا وبهم أنفع طريق، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة، مُشِيرًا بـ "فيها" للمدونة.¹⁷

ولم أعجز عن تتبع كل ما في المختصر؛ من باب الطهارة إلى آخر باب الفرائض؛ فلم أقف على كثرة إحالته على بـ: فيها، وأشار في موضعين: الموضع الأول على سحنون، في ص: 124، وفي الموضع الثاني على مالك، وابن القاسم، وفي ص: 128، 179.

وهو قد صرَّح فيما نقلت عنه آنفا بقوله: "مُشِيرًا بـ "فيها" للمدونة." التي تدفع توهم الظفر بعدد كبير من الإحالات عليها، فضلا عن غيرها من المصادر الأخرى، حيث قال بعد ذلك مباشرة: "وبـ" أُول" إلى اختلاف شارحيها في فهمها"¹⁸، وأنت ترى هاهنا مداره الذي يبدأ في الاتساع من تأثير المدونة على عمله في المختصر، ثم إن باقي المصنفات والكتب التي اعتمد عليها خليل في مختصره لا تخرج عن المدونة في الشيء الكثير؛ إذ اللحي¹⁹ وضع

تعليقاً عليها سماه: "التبصرة"، وابن يونس²⁰ احتفى بجمع مسائلها في كتاب جامع أسمائه: "الجامع لمسائل المدونة والأمهات"، وابن رشد²¹ اشتهر بـ: "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات"، والمازري²² عُرفَ بـ: "شرح التلقين"؛ وخصَّه الشيخ خليل بمصطلح القول²³؛ لبلوغه درجة الاجتهاد المطلق؛ فقد كان أن راعى الخلاف في أصعب مسألة بين المالكية والشافعية²⁴.

وها هو يقول في الأخير: "و" الاختيار" للحمي لكن إن كان بصيغة الفعل فذلك لاختياره هو في نفسه، وبالإسم فذلك لاختياره من الخلاف، وبـ "الترجيح" لابن يونس كذلك، و بـ "الظهور" لابن رشد كذلك، وبـ "القول" للمازري كذلك.²⁵

فدل ذلك على أنَّ التأثير للمدونة على المختصر حاصل من كل وجه بها بالأصالة عنها، وبما كتب حولها بالتبع.

وفيما يلي بيان لما ورد في هذه المصنفات التي خدمت المدونة: " فإن بعض أصحابنا المجتمعين إلى المذاكرة والمناظرة في مسائل كتب المدونة سألني أن أجمع له ما أمكن مما كنت أورده عليهم عند استفتاح كتبها... "26.

خاتمة:

في الخاتمة نخلص إلى رقم النتائج الآتية:

1. ما المدونة في أصلها إلا من سماعات مالك، والعتبية أيضا، وغيرهما كثير، لكن ليس كلها على وزن واحد، ولا كلها يحتج بها.
2. لا يُمكن عدُّ الموطأ من جملة فقه الإمام مالك رحمه الله، فضلا عن اعتباره أصلا من أصوله المعتمدة في التخريج والاستنباط، حتى لا تتصدر المدونة قائمة الترتيب في مصادر الفقه المالكي.
3. استخرج خليل من التَّوضيح مختصره، وجاء كمرحلة من مراحل الترجيح والتشهير، والعود إلى البدء الذي كانت فيه المدونة حاكمة وسائدة، وطُرِح ما عداها من الكتب الزائدة، دفعا لكل تشويش ولبس، وأخذًا بالمعتمد من مذهب مالك بن أنس.
4. ورث الشيخ خليل فقه الأولين والآخرين كما ورث مالك فقه أهل المدينة في ذلك الوقت والحين.
5. إذا احتاج الناس في مرحلة متأخرة من عصور التقليد إلى مثل مختصر خليل؛ فإنه لا بد في فهمه فهما صحيحا من الاستعانة بالمدونة.
6. لو لم يكن المختصر مسبوقا بالمدونة لما كان له من فضل، والفضل للسابق وإن أحسن اللاحق.

التوصيات:

1. أوصي بالعناية بمثل هذه الدراسات، وإفرادها في تعزيز المرجعية الدينية والفقهية في وطننا العزيز.
 2. أوصي ولاية الأمور في بلدنا والجهات المعنية بالشأن الديني المتابعة الصارمة للمرجعية الفقهية، لا سيما في الشعائر الدينية عند العامة والخاصة.
- وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلن تسليمًا.

فهرس المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

1. أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية، هشام نوزري، إشراف وإخراج: مركز الإمام مالك الإلكتروني، ط.1، 2020.
2. ترتيب المدراك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك: للإمام القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحسبي البستي. تحقيق أحمد بكير محمود، دار الحياة بيروت ودار الفكر طرابلس.
3. تهذيب التهذيب للإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني، دار الفكر بيروت ط1 (1404هـ 1984م).
4. توظيف المصطلح الفقهي عند الشيخ خليل بن إسحاق الجندي(776هـ) من خلال كتابه المختصر، سالم اليمان، إبراهيم رحمان، مجلة الشهاب، العدد: 01 رمضان 1446هـ - مارس 2025
5. الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، تصنيف الإمام العلامة الفقيه أبي بكر بن عبد الله ابن يونس الصّقلي، اعتنى به أبو الفضل الديماطي أحمد بن علي، كتاب ناشرون.
6. حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط.1، 1387هـ-1968م.
7. الدباج المذهب في معرفة أعيان المذهب: للإمام القاضي إبراهيم بن نورالدين المعروف بابن فرحون، المالكي، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، ط1(1317هـ / 1997م) بيروت لبنان.
8. درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي، ط.1، تحقيق محمد الأحدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة، 1391هـ.
9. الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، تحقيق ومراقبة محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الهند، 1392هـ-1972م.
10. ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهرسه، مصطفى السقا، إبراهيم الأبيري، عبد الحفيظ شلي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان.
11. سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط:1، (1405هـ 1985م).
12. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمحمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي بيروت.
13. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: للإمام أبي الفلاح عبد الحي بن العماد، الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، (1399هـ-1979م).
14. شرح التلقين، لأبي عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري المالكي، تحقيق سماحة الشيخ محمد المختار السّلامي، ط:1 دار الغرب الإسلامي.
15. شفاء الغليل في حلّ مقفل خليل، ابن غازي، أبو عبد الله، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1429هـ - 2008م، تحقيق الدكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب، (112/1).
16. مجلة الإحياء، لعبد الرحمن بلعقون، مختصر خليل وأهميته في الفقه المالكي، المجلد: 19، العدد: 22، سبتمبر 2019.

17. مختصر خليل في فقه إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، للعلامة الشيخ خليل بن إسحاق المالكي، صحَّحه وعلَّق عليه الشيخ طاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية، مايو 2004
18. المدونة: للإمام دار الهجرة مالك بن أنس - برواية سحنون - ط: 2 (1323هـ) مطبعة السعادة، دار صادر.
19. مراسلات ابن أبي زيد القيرواني (310 - 386هـ)، مقال علمي للدكتور عبد الرحمن بن معمر السُّنُوسي، مجلة الصراط، السنة الثامنة عشرة، العدد الثالث والثلاثون، رمضان 1437هـ، يوليو 2016م
20. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، الخطاب، الرعي، دار عالم الكتب، طبعة خاصة (1423هـ - 2003)، المحقق: زكريا عميرات.
21. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكي، منشورات كلية الدعوة-طرابلس.
22. وفيات الأعيان وأنباء الزمان: للإمام أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت.
23. المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأهمها مسائلها المشكلات، تأليف أبي الوليد محمد بن أحمد القرطبي، المعروف بابن رشد الجدة، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1 (1408هـ - 1988م)

¹ هذا جزء من حديث أخرجه مسلم، حديث رقم (1363) (407/3)

² متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (6408)، أخرجه مسلم في صحيحه رقم (2689)

³ هشام نوزري، أثر المدونة في بناء المدرسة المالكية، إشراف وإخراج: مركز الإمام مالك الإلكتروني، ط.1، 2020

⁴ هو: إمام الأئمة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، إليه ينسب المذهب المالكي، أخذ عن ربيعة الرأي، وعبد الرحمن بن هرمز، ونافع مولى بن عمر وغيرهم، وعنه أخذ الشافعي، وابن القاسم، ويحيى بن يحيى الليثي، والثوري، من مؤلفاته: الموطأ، تفسير غريب القرآن، ورسالة في القدر، ولد على أشهر الروايات سنة 93 وكانت وفاته رحمه الله على الصحيح سنة 17هـ.

انظر ترجمته في: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (318، 319/6)، طبقات الكبرى لابن سعد (465/5) التاريخ الكبير للبخاري، (310/7)، وترتيب المدارك للقاضي عياض (110/1)، ومالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه للشيخ أبي زهرة ص 39، 40.

⁵ هو: عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني، أبو محمد، عالم مالكي ولد بالقيروان سنة 310هـ (922م) وتوفي سنة 386هـ (996م)، لقب ب "مالك الأصغر" لإحاطته بمذهب الإمام مالك، وتعتبر "الرسالة" أشهر مؤلفاته.

ينظر ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض (216، 215/6)، الديباج المذهب (428، 427/1)، تراجم المؤلفين التونسيين (444، 443/2).

⁶ مراسلات ابن أبي زيد القيرواني (310 - 386هـ)، مقال علمي للدكتور عبد الرحمن بن معمر السنوسي، مجلة الصراط، السنة الثامنة عشرة، العدد الثالث والثلاثون، رمضان 1437هـ، يوليو 2016م، ص 187

⁷ تاريخ ابن خلدون (19، 18/1).

⁸ هو: عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو سعيد، الملقب بـ: سحنون، القيرواني، أصله من حمص الفقيه الحافظ العابد الورع الزاهد الإمام العالم الجليل، انتهت إليه رئاسة المذهب، أخذ عن عبد الرحمن بن القاسم وابن وهب وأشهب، توفي سنة 240هـ، وقبره بالقيروان، ينظر ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض (585/1)، الديباج المذهب لابن فرحون (40_30/2)، شجرة النور (70، 29/1).

⁹ نور الدين عباسي، محاضرات في تخريج الفروع على الأصول، مطبوعة لطلبة الماستر 1 تخصص شريعة وقانون ص: 12، 13.

¹⁰ هو: عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي المصري، من أعلام المذهب المالكي، جمع بين الزهد والعلم، تفقه على الإمام مالك ونظرائه، صحب مالكا عشرين سنة وهو صاحب المدونة وعنه أخذها سحنون، توفي سنة 191هـ، ينظر ترجمته في: وفيات الأعيان (129/3)، تذكرة الحفاظ للذهبي (357، 356/1)، تهذيب التهذيب لابن حجر (252/6)

¹¹ محاضرات في مصادر الفقه الإسلامي، لطلبة ماستر 2، تخصص الحضارة الإسلامية، ص: 5

¹² ينظر ترجمته في: الديباج لابن فرحون (312/1)، نيل الانتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكي، ص. 219، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (397/1)، الدرر الكامنة لابن حجر (86/2)، شجرة النور (223/1)، درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي، ص. 258.

¹³ لما دخل المختصر لدول شمال إفريقيا على يد الشيخ محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني، أعرضوا عن مختصر ابن الحاجب، ومن أوائل من وضع شرحا عليه ابن مرزوق التلمساني الحفيد، المعروف باسم المنزوع النبيل. ينظر: مقال نشر بمجلة الإحياء، لعبد الرحمن بلعقون، مختصر خليل وأهميته في الفقه المالكي، مج. 19، ع. 22، سبتمبر 2019، ص: 445

¹⁴ ابن غازي، أبو عبد الله، شفاء الغليل في حلّ مقفل خليل، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 1429هـ-2008م، تحقيق الدكتور أحمد بن عبد الكريم نجيب، (112/1).

¹⁵ الخطاب، الرعي، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار عالم الكتب، ط. خاصة (1423هـ-2003)، المحقق: زكريا عميرات، (1/1).

¹⁶ البيت لأبي الطيب المتنبي، ينظر ديوانه بشرح العكبري (92/3)

¹⁷ مختصر خليل في فقه إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، للعلامة الشيخ خليل بن إسحاق المالكي، صحّحه وعلّق عليه الشيخ طاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، طرابلس ليبيا، ط.2، مايو 2004، ص: 7

¹⁸ المصدر نفسه، ص: 7

¹⁹ هو: علي بن محمد الربيعي القيرواني، أبو الحسن اللخمي من فقهاء المذهب المالكي، هو من الطبقة العاشرة، من مصنفاته: التبصرة، شرح الوغلسية، فضائل الشام، توفي بصفاقس سنة (478هـ)، ينظر ترجمته في: ترتيب المدارك (69/2)، الديباج المذهب (114/1)، شجرة النور الزكية (117/1)

²⁰ ابن يونس: هو: محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي، أحد أئمة الترجيح، عاش أول عمره في صقلية ثم انتقل إلى القيروان وأخذ عن شيوخها، ثم انتقل إلى المهدية وأقرأ بها الفقه والفرائض توفي سنة (451هـ)، من مصنفاته: الجامع لمسائل المدونة والمختلطة، كتاب الفرائض، ينظر ترجمته في: ترتيب المدارك (114/8)، شجرة النور الزكية (165/1).

²¹ هو: محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، المشهور بإبن رشد الجد، شيخ المالكية وقاضي الجماعة بقرطبة، وهو جد الفيلسوف ابن رشد، من مصنفاته: التخصيص والبيان والشرح والتوجيه والتعليل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، المقدمات الممهدة، نوازل ابن رشد وشرع أيضا الفتاوى والأجوبة وغيرها، من تلاميذه: القاضي عياض، وولده أحمد بن محمد بن رشد، وعبد الله بن مسرة توفي سنة (520هـ)، ينظر ترجمته في: الغنية، القاضي عياض، ص 54، سير أعلام النبلاء للذهبي (501/19)، الديباج لابن فرحون (229/2)، بغية الملتمس، لابن عميرة الضبي، ص 51

²² هو: محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري، أبو عبد الله، ولد سنة 443هـ بالمهدية في تونس، و أقام بها، أخذ عن عبد الله بن محمد عبد الله المالكي، واللخمي صاحب التبصرة، من تلاميذه: علي بن محمد ابن المقرئ الغرناطي، محمد بن عبد الله المعافري، ويوسف بن محمد بن يوسف التوزري، وغيرهم، من مصنفاته: شرح التلقين، والمعلم بفوائد مسلم، وهو من أوائل الشروح المطولة لصحيح مسلم، وإيضاح المحصول من برهان الأصول، وغيرها، لقب بالإمام لبلوغه درجة الاجتهاد.

ينظر ترجمته في: شذرات الذهب (144/4)، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (291/1)، الديباج لابن فرحون (231/2، 232)، سير أعلام النبلاء للذهبي (104-107/20)، الإمام المازري، حسن حسني عبد الوهاب: 49-55.

²³ ينظر: ابن غازي، شفاء الغليل في حل مقفل خليل (118/1)، ومقال: توظيف المصطلح الفقهي عند الشيخ خليل بن إسحاق الجندي (776هـ) من خلال كتابه المختصر، سالم اليمان، إبراهيم رحاني، ص: 306، مجلة الشهاب، العدد: 01

رمضان 1446هـ - مارس 2025

²⁴ راعى الإمام المازري الخلاف فيما يذهب إليه الشافعية من القول بوجوب قراءة البسملة في الفاتحة في الصلاة المكتوبة، والصلاة تبطل بدونها، والمالكية يخالفونهم في ذلك، فضلى بالناس وأتى بالبسملة في الجهرية؛ فظنوا به أنه صار شافعيًا؛ لكنه أجاب بالقول: بحث في مذهب الشافعية فما وجدت قولاً واحداً يصحح صلاة من لم يقرأ الفاتحة بالبسملة، وبحثت في مذهبي فلم أحداً من أصحابنا يبطل صلاة من قرأ الفاتحة بالبسملة، فأثبت هاهنا في صلاتي بكم ما يصح في مذهب الشافعية ولا يبطل في مذهب أصحابنا؛ وهذا من أدق صور مراعاة الخلاف.

²⁵ المصدر نفسه، ص: 7، 8

²⁶ المقدمات المهمات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأهميات مسائلها المشكلات، لابن رشد، تحقيق محمد حجي، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1408م-1988م، (9/1)